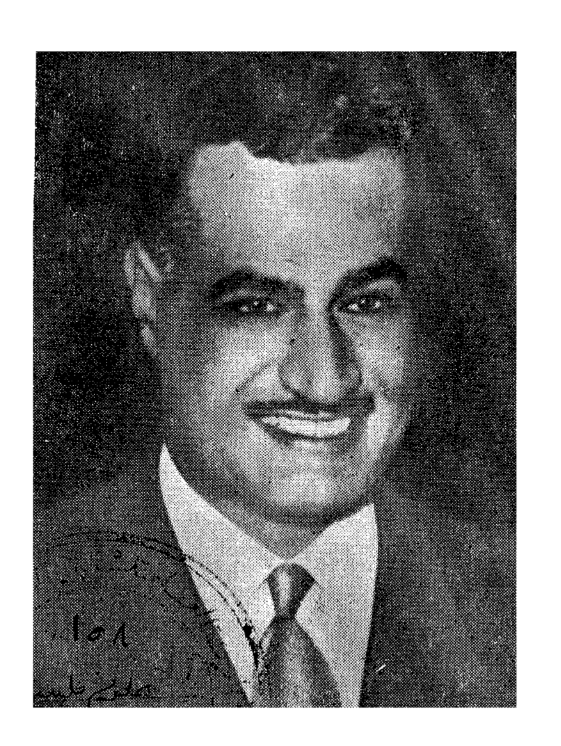


جمال عبد الناصر
فلسفة الثورة

فلسفة الثورة

بقلم

جمال عبد الناصر



مقدمة

ان هذه الخواطر ليست محاولة لتأليف كتاب ...

ولا هى محاولة لشرح أهداف ثورة ٢٣ يوليو وحوادثها ... انما هى شىء آخر تماما ...

انها أشبه ما تكون بدورية استكشاف ...

انها محاولة لاستكشاف نفوسنا لكى نعرف من نحن وما دورنا فى تاريخ مصر المتصل الحلقات ...

ومحاولة لاستكشاف أهدافنا والطاقة التى يجب أن نحشدها لنحقق هذه الأهداف ...

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا ، لنعرف أننا نعيش فى جزيرة يعزلها الماء من جميع الجهات ...

هذا هو الذى قصدت اليه ...

مجرد دورية استكشاف فى الميدان الذى نحارب فيه فى معركتنا الكبرى من أجل تحرير الوطن من كل الأغلال ...

الجزء الأول

ليست فلسفة ـ محاولات لم تتم ـ ليست مجرد تمرد ـ كنا في فلسطين وأحلامنا في مصر ـ أحمد عبد العزيز قبل أن يموت ـ درس من اسرائيل ـ ايام التلمذة ـ الحقيقة والفراغ ـ لماذا كان لابد ان يتحرك الجيش ـ الصورة الكاملة ـ الطليعة والجموع ـ أقصى أماني ـ نموذج من أعضاء مجلس الثورة ـ أزمات نفسية ـ ثورتان في وقت واحد ـ لكيلا يقع تصادم على الطريق .

قبل ان امضى فى هذا الحديث اريد ان اقف قليلا عند كلمة « فلسفة » .

ان الكلمة ضخمة وكبيرة ..

وانا احس وانا واقف حيالها انى امام عالم واســع ليس له حدود ، واشعر فى نفسى برهبة خفية تمنعنى من ان اخوض فى بحر ليس له قاع ، ولا ارى له على البعد ، من الشاطىء الذى اقف فيه ، شاطئا آخر انتهى اليه .

والحق انى اريد ان اتجنب كلمة فلسفة فى هذا الذى ساقوله ؟ ثم انا اظن انه من الصعب على ان اتحدث عن فلسفة الثورة .

من الصعب لسببين !

أولهما : ان الحديث عن فلسفة ثورة ٢٣ يوليو يلزمه اساتذة يتعمقون فى البحث عن جذورها الضاربة فى اعماق تاريخ شعبنا .

وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز الى الوجود دون مقدمات .

ان كفاح اى شعب ، جيلا بعد جيل ، بناء يرتفع حجرا فوق حجر ..

وكما ان كل حجر فى البناء يتخذ من الحجر الذى تحته قاعدة يرتكز عليها ، كذلك الأحداث فى قصص كفاح الشعوب .

كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه ، وهو فى نفس الوقت مقدمة لحدث ما زال فى ضمير الغيب ...

ولست اريد ان ادعى لنفسى مقعد استاذ التاريخ ...

ذلك آخر ما يجرى به خيالى .

ومع ذلك فلو حاولت محاولة تلميذ مبتدىء ، فى دراسة قصة كفاح شعبنا ، فانى سوف أقول مثلا أن ثورة ٢٣ يوليو هى تحقيق للأمل الذى راود شعب مصر ، منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه بأيدى أبنائه ، وفى أن تكون له نفسه الكلمة العليا فى مصيره ...

لقد قام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذى تمناه ، يوم تزعم السيد عمر مكرم حركة تنصيب محمد على واليا على مصر ، باسم شعبها ...

وقام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذى تمناه ، يوم حاول عرابى أن يطالب بالدستور ...

وقام بمحاولات متعددة ، لم تحقق له الأمل الذى تمناه ، فى فترة الغليان الفكرى التى عاشها بين الثورة العرابية وثورة سنة ١٩١٩ .

وكانت هذه الثورة الأخيرة — ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول — محاولة أخرى لم تحقق الأمل الذى تمناه .

وليس صحيحا أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التى أسفرت عنها حرب فلسطين ، وليس صحيحا كذلك أنها قامت بسبب الأسلحة الفاسدة التى راح ضحيتها جنود وضباط ، وأبعد من ذلك عن الصحة ما يقال أن السبب كان أزمة انتخابات نادى ضباط الجيش .

انما الأمر فى رأيى كان أبعد من هذا وأعمق أغوارا .

ولو كان ضباط الجيش حاولوا أن يثوروا لأنفسهم لأنه قد غرر بهم فى فلسطين ، أو لأن الأسلحة الفاسدة أرهقت أعصابهم ، أو لأن اعتداء وقع على كرامتهم فى انتخابات نادى ضباط الجيش ،

لمـا كان الأمر يستحق أن يكون ثورة ، ولكان اقرب الأشياء الى وصفه أنه مجـرد تمرد ، حتى وان كانت الأسباب التى أدت اليه منصفة عادلة فى حد ذاتها .

لقد كانت هذه كلها اسبابا عارضة ...

وربما كان اكبر تأثير لها أنها كانت تستحثنا على الاسراع فى طريق الثورة ، ولكننا كنا من غيرها نسير على هذا الطريق .

وانا احاول اليوم بعد كل ما مر بى من احداث ، وبعد سنوات طويلة من بدء التفكير فى الثورة ، ان اعود بذاكرتى واتعقب اليوم الأول الذى اكتشفت فيه بذورها فى نفسى .

ان هذا اليوم ابعد فى حياتى من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ ، ايام ابتـداء أزمة نادى الضبـاط ، ففى ذلك الوقت كان تنظيم الضباط الأحرار قائما يباشر عمله ونشاطه ، بل انا لا أغالى اذا قلت أن أزمـة انتخابات النادى أثارها أكثر من أى شىء آخر فى نشاط الضباط الأحرار ، فقد شئنا فى ذلك الوقت أن ندخل معركة نجرب فيها قوتنا على التكتل وعلى التنظيم .

وهذا اليوم ــ فى حياتى ايضا ــ ابعد من بدء فضيحة الأسلحة الفاسدة ، فقد كان تنظيم الضباط الاحرار موجودا قبلها ، وكانت منشوراتهم أول نذير بتلك المأساة ، وكان نشاطهم وراء الضجة التى قامت حول الأسلحة الفاسدة .

* * *

بل ان هذا اليوم فى حياتى ابعد من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ ذلك اليوم الذى كان بداية حياتى فى حرب فلسطين .

وحين احاول الآن ان استعرض تفاصيل تجاربنا فى فلسطين أجد شيئا غريبا .

فقد كنا نحارب فى فلسطين ، ولكن احلامنا كلهـا كانت فى مصر .

كان رصاصنا يتجه الى العدو الرابض امامنا فى خنادقه ، ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذى تركناه للذئاب ترعاه .

وفى فلسطين كانت خلايا الضبـاط الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع فى الخنادق والمراكز .

فى فلسطين جاءنى صلاح سالم وزكريا محيى الدين ، واخترقا الحصار الى الفالوجة ، وجلسنا فى الحصـار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية ، وكان حديثنا الشاغل وطننا الذى يتعين علينا أن نحاول انقاذه .

وفى فلسطين جلس بجوارى مرة كمال الدين حسين وقال لى وهو ساهم الفكر شارد النظرات .

— هل تعلم ماذا قال لى احمد عبد العزيز قبل أن يموت ؟

قلت !

— ماذا قال ... ؟

وقال كمال الدين حسين وفى صوته نبرة عميقـة وفى عينيه نظرة اعمق !

— لقد قال لى ! اسمع يا كمال ، ان ميدان الجهاد الاكبر هو فى مصر ....

❋ ❋ ❋

ولم التق فى فلسطين بالأصدقاء الذين شاركونى فى العمل من أجل مصر ، وانما التقيت أيضا بالأفكار التى انارت امامى السبيل .

وانا اذكر ايام كنت اجلس فى الخنـادق واسرح بذهنى الى مشاكلنا ...

كانت الفالوجة محاصرة ، وكان تركيز العدو عليها ضربا بالمدافع والطيران تركيزا هائلا مروعا .

وكثيرا ما قلت لنفسى :

« ها نحن هنا فى هذه الجحور محاصرون ، لقد غرر بنا ، دفعنا الى معركة لم نعد لها ، لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات ، وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح » .

وحين كنت أصل الى هذا الحد من تفكيرى كنت أجد خواطرى تقفز فجأة عبر ميادين القتال ، وعبر الحدود ، الى مصر ، واقول لنفسى :

هذا هو وطننا هنـاك ، انه « فالوجة » اخـرى على نطاق أكبر ...

ان الذى يحدث لنا هنا صورة من الذى يحدث هناك ... صورة مصغرة ...

وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء ، وغرر به ... ودفع الى معركة لم يعد لها ، ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات ، وترك هناك تحت النيران بغير سلاح !

***

واكثر من هذا ، لم يكن الاصدقاء هم الذين تحدثوا معى عن مستقبل وطننا فى فلسطين ولم تكن التجارب هى التى قرعت افكارنا بالنذر والاحتمالات عن مصيره ، بل ان الأعداء أيضا لعبوا دورهم فى تذكيرنا بالوطن ومشاكله ...

ومنذ اشهر قليلة قرأت مقالات كتبها عنى ضابط اسرائيلى اسمه « يردهان كوهين » ونشرتها له جريدة « جويشن اوبزرفر » وفى هذه المقـالات روى الضـابط اليهودى كيف التقى بى اثنـاء مباحثات واتصالات عن الهدنة وقال :

« لقد كان الموضوع الذى يطرقه جمال عبد الناصر معى دائما هو كفاح اسرائيل ضـد الانجليز ، وكيف نظمنا حركة مقاومتنا السرية لهم فى فلسطين وكيف استطعنا أن نجند الرأى العام فى العالم وراءنا فى كفاحنا ضدهم » .

* * *

ثم ان هذا اليوم ــ اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى نفسى ــ ابعـد من حادث ٤ فبراير سـنة ١٩٤٢ الذى كتبت بعده خطابا الى صديق قلت له فيه :

« ما العمـل بعد أن وقعت الواقعـة وقبلنـاها مستسلمين خاضعين خانعين ؟ » .

الحقيقة انى اعتقد ان الاستعمار يلعب بورقة واحدة فى يده بقصد التهديد فقط ، ولكن لو انه احس ان بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لانسحب كأى امرأة من العاهرات ...

وطبعا هذه حاله أو تلك عادته ...

أما نحن : أما الجيش ، فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الروح المعنوية ، فبعد أن كنت ترى الضباط لا يتكلمون الا عن الفساد واللهو . أصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس فى سبيل الكرامة ، وأصبحت تراهم وكلهم ندم لأنهم لم يتدخلوا ــ مع ضعفهم الظاهر ــ ويردوا للبلاد كرامتها ، ويغسلوها بالدماء ، ولكن غدا لناظره قريب ...

لقد حاول بعضهم بعد الحادث أن يعملوا شيئا بغية الانتقام ، ولكن الوقت كان قد فاته ، أما القلوب فكلها نار وأسى ...

والواقع أن هذه الحركة .. ان هذه الطعنة ردت الروح الى بعض الأجساد ، وعرفتهم أن هناك كرامة يجب ان يستعدوا للدفاع عنها . وكان هذا درسا قاسيا .

وكذلك فان هذا اليوم أبعد فى حياتى من الفوران الذى عشت فيه أيام كنت طالبا امشى مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ — وقد عاد الدستور بالفعل — فى سنة ١٩٣٥ .. وأيام كنت اسعى مع وفود الطلبة ، الى بيوت الزعماء نطلب منهم أن يتحدوا من أجل مصر ، وتألفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ بالفعل على أثر هذه الجهود .

واذكر اننى فى فترة الفوران هذه كتبت خطابا الى صديق من اصدقائى قلت فيه ، وكان تاريخه ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ :

« أخى ...

خاطبت والدك يوم ٣٠ أغسطس فى التليفون وقد سألته عنك فأخبرنى انك موجود فى المدرسة ...

لذلك عولت على أن أكتب اليك ما كنت سأكلمك فيه تليفونيا.

قال الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ... »

فأين تلك القوة التى نستعد بها لهم ؟

ان الموقف اليوم دقيق ، ومصر فى موقف أدق . ونحن نكاد نودع الحياة ونصافح الموت ، فان بناء اليأس عظيم الأركان ، فأين من يهدم هذا البناء ...؟

ثم مضيت فى هذا الخطاب الى آخره ...»

واذن فمتى كان ذلك اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى اعماقى ؟ ... انه بعيد .

فاذا أضيف الى هذا كله ، أن تلك البذور لم تكن كامنة فى أعماقى وحدى ، وانما وجدتها كذلك فى اعماق كثيرين غيرى هم الآخرون بدورهم لا يستطيع الواحد منهم أن يتعقب بداية وجودها داخل كيانه ، لاتضح اذن أن هذه البذور ولدت فى أعماقنا حين ولدنا ، وأنها كانت أملا مكبوتا خلقه فى وجداننا جيل سبقنا ..

ولقد استطردت وراء هذا كله لأشرح السبب الأول الذى من أجله وجدت من الصعب على أن أتحدث عن فلسفة الثورة وقلت ان هذا الحديث يلزمه أساتذة يتعمقون فى البحث عن جذورها الضاربة فى أعماق تاريخ شعبنا ...

أما السبب الثانى : فهو أننى كنت بنفسى داخل الدوامة العنيفة للثورة .

والذين يعيشون فى أعماق الدوامة قد تخفى عليهم بعض التفاصيل البعيدة منها ...

وكذلك كنت بايمانى وعقلى وراء كل ماحدث ، وبنفس الطريقة التى حدث بها ، واذن فهل استطيع أن أتجرد من نفسى حين أتكلم عنه ، وحين أتكلم عن المعانى المستترة وراءه ؟

أنا من المؤمنين بأنه لا شىء يمكن أن يعيش فى فراغ ...

حتى الحقيقة لا يمكن أن تعيش فى فراغ ...

والحقيقة الكامنة فى أعماقنا هى : ما نتصوره انه الحقيقة ، أو بمعنى أصح : هو الحقيقة مضافا اليها نفوسنا ..

نفوسنا هى الوعاء الذى يعيش فيه كل ما فينا ، وعلى شكل هذا الوعاء سوف يتشكل كل ما يدخل فيه ، حتى الحقائق .

وانا احاول ـ بقدر ما تستطيع طاقتى البشرية ـ ان امنع نفسى من ان تغير كثيرا من شكل الحقيقة ، ولكن الى اى حد سوف يلازمنى التوفيق ؟

هذا سؤال .

وبعده اريد أن أكون منصفا لنفسى ، ومنصفا لفلسفة الثورة ، فاتركها للتاريخ يجمع شكلها فى نفسى ، وشكلها فى نفوس غيرى ، وشكلها فى الحوادث جميعا ، ويخرج من هذا كله بالحقيقة كاملة ..

* * *

واذن فما الذى أريد أن أتحدث عنه اذا كنت قد استبعدت كلمة « فلسفة » ؟ الواقع ان الذى أملكه فى هذا الصدد شيئين !

أولهما : مشاعر اتخذت شكل الأمل المبهم ، ثم شكل الفكرة المحددة ، ثم شكل التدبير العملى ، ثم موضع التنفيذ الفعلى فى منتصف ليل ٢٣ يوليو حتى الآن ..

وعن هذه المشاعر والتجارب أريد أن أتحدث ..

لطالما الح على خاطرى سؤال ، هو :

« هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟ » .

لقد قلت منذ سطور ، ان ثورة ٢٣ يوليو كانت تحقيقا لأمل كبير راود شعب مصر ، منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى ان يكون حكمه فى أيدى ابنائه ، وفى أن تكون له نفسه الكلمة العليا .

واذا كان الأمر كذلك ، ولم يكن الذى حدث يوم ٢٣ يوليو تمردا عسكريا ، وليس ثورة شعبية ، فلماذا قدر للجيش ، دون غيره من القوى ، ان يحقق هذه الثورة ؟

ولقد آمنت بالجندية طولَ عمرى ، والجندية تجعل للجيش واجبا واحدا ، هو ان يموت على حدود وطنه ، فلماذا وجد جيشنا نفسه مضطرا للعمل فى عاصمة الوطن ، لا على حدوده ؟

ومرة اخرى ، دعونى انبه الى ان الهزيمة فى فلسطين ، والأسلحة الفاسدة ، وأزمة نادى الضباط .. لم تكن المنابع الحقيقة التى تدفق منها السيل ، لقد كانت هذه كلها عوامل مساعدة على سرعة التدفق ، ولكنها – كما سبق أن قلت – لا يمكن ابدا ان تكون هى الاصل والأساس .

واذن لماذا وقع على الجيش هذا الواجب ؟

قلت : ان هذا السؤال طالما الح على خواطرى ...

الح عليها ونحن فى دور الأمل والتفكير والتدبير بعد ٢٣ يوليو .
والح عليها فى مراحل كثيرة من التجربة بعد ٢٣ يوليو .

ولقد كانت امامنا مبررات مختلفة قبل ٢٣ يوليو تشرح لنا لماذا يجب ان نقوم بالذى قمنا به ...

كنا نقول : اذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به ؟

وكنا نقول : كنا نحن الشبح الذى يؤرق به الطاغية احلام الشعب ، وقد آن لهذا الشبح ان يتحول الى الطاغية فيبدد أحلامه هو ...

وكنا نقول غير هذا كثيرا ، ولكن الأهم من كل ما كنا نقوله ، اننا كنا نشعر شعورا يمتد الى اعماق وجودنا بأن هذا الواجب واجبنا ، واننا اذا لم نقم به فاننا نكون كأننا قد تخلينا عن أمانة مقدسة نيط بنا حملها ...

ولكنى اعترف ان الصورة الكاملة لم تتضح فى خيالى الا بعد فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو ...

وكانت تفاصيل هذه التجربة ، هى بعينها تفاصيل الصورة .

وأنا اشهد أنه مرت على بعد يوم ٢٣ يوليو نوبات اتهمت فيها نفسى وزملائى وباقى الجيش بالحماقة والجنون الذى صنعناه فى ٢٣ يوليو ...

لقد كنت اتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة ، وانها لا تنتظر الا طليعة تقتحم أمامها السور ، فتندفع الأمة وراءها صفوفا متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدسا الى الهدف الكبير ...

وكنت أتصور دورنا على أنه دور طليعة الفدائيين ، وكنت اظن أن دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات ، ويأتى بعدها الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير ؛ بل قد كان الخيال يشط بى أحيانا فيخيل الى انى اسمع صليل الصفوف المتراصة واسمع هدير الواقع الرهيب لزحفها المنظم الى الهدف الكبير ، اسمع هذا كله ويبدو فى سمعى من فرط ايمانى به حقيقة مادية ، وليس مجرد تصورات خيال ...

ثم فاجأنى الواقع بعد ٢٣ يوليو ...

قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير ...

وطال انتظارها ..

لقد جاءتها جموع ليس لها آخر ... ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال !

كانت الجموع التى جاءت أشياعا متفرقة ، وفلولا متناثرة ، وتعطل الزحف المقدس الى الهدف الكبير ، وبدت الصورة يومها قائمة مخيفة تنذر بالخطر ..

وساعتها احسست وقلبى يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة أن مهمة الطليعة لم تنته فى هذه الساعة ، وانما من هذه الساعة بدأت ...

كنا فى حاجة الى النظام ، فلم نجد وراءنا الا الفوضى ...

وكنا فى حاجة الى الاتحاد ، فلم نجد وراءنا الا الخلاف ...

وكنا فى حاجة الى العمل ، فلم نجد وراءنا الا الخنوع والتكاسل ...

ومن هنا وليس من اى شىء آخر ، اخذت الثورة شعارها .

* * *

ولم تكن على استعداد ...

وذهبنا نلتمس الراى من ذوى الراى ، والخبرة من اصحابها ...

ومن سوء حظنا لم نعثر على شىء كثير ...

كل رجل قابلناه لم يكن يهدف الا الى هدم فكرة اخرى !

ولو اطعنا كل ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع الأفكار ، ولما كان لنا بعدها ما نعمله الا أن نجلس بين الأشلاء والأنقاض نندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس !

وانهالت علينا الشكاوى والعرائض بالألوف ومئات الألوف ، ولو أن هذه الشكاوى والعرائض كانت تروى لنا حالات تستحق الانصاف ، أو مظالم يجب أن يعود اليها العدل ، لكان الأمر منطقيا ومفهوما ، ولكن معظم ما كان يرد الينا لم يزد أو ينقص عن أن

يكون طلبات انتقام ... كأن الثورة قامت لتكون سلاحا فى يد الحاقدين والمبغضين !

* * *

ولو أن احدا سألنى فى تلك الأيام ، ما أعز امانيك ؟ لقلت له على الفور :

ـــ ان أسمع مصريا يقول كلمة انصاف فى حق مصرى آخر .. وان أحس أن مصريا قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لاخوانه المصريين ..

وان ارى مصريا لا يكرس وقته لتسفيه آراء مصرى آخر ..

وكانت هناك بعد ذلك كله انانية فردية مستحكمة ....

كانت كلمة « انا » على كلّ لسان ...

كانت هى الحلّ لكل مشكلة ، وهى الدواء لكلّ داء ....

وكثيرا ما كنت اقابل كبراء ــ أو هكذا تسميهم الصحف ــ من كل الاتجاهات والألوان ، وكنت أسأل الواحد منهم عن مشكلة التمس عنده حلا لها ، فلم اكن أسمع الا « أنا » ....

مشاكل الاقتصاد « هو » وحده يفهمها ، أما الباقون جميعا فهم فى العلم بها أطفال يحبون .

ومشاكل السياسة « هو » وحده الخبير بها أما الباقون جميعا فمازالوا فى « الف باء » لم يتقدموا بعدها حرفا واحدا .

وكنت اقابل الواحد من هؤلاء ، ثم اعود الى زملائى فأقول لهم فى حسرة !

ـــ لا فائدة ... هذا رجل لو سألناه عن مشكلة صيد السمك فى جزائر هواى لما وجدنا عنده جوابا الا كلمة « انا » ...!

اذكر مرة كنت ازور فيها احدى الجامعات .. ودعوت أساتذتها وجلست معهم احاول أن اسمع منهم خبرة العلماء .

وتكلم أمامى منهم كثيرون .. وتكلموا طويلا ..

ومن سوء الحظ ان احدا منهم لم يقدم لى افكارا ، وانما كل واحد منهم لم يزد على أن قدم لى نفسه ، وكفاياته الخلقية وحدها لعمل المعجزات ، ورمقنى كل واحد منهم بنظرة الذى يؤثرنى على نفسه بكنوز الأرض وذخائر الخلود .

واذكر انى لم أتمالك نفسى فقمت بعدها اقول لهم :

« ان كل فرد منا يستطيع فى مكانه أن يصنع معجزة ، ان واجبه الاول ان يعطى كل جهده لعمله ، ولو انكم ، كأساتذة جامعات ، فكرتم فى طلبتكم ، وجعلتموهم — كما يجب — عملكم الاساسى ، لاستطعتم أن تعطونا قوة هائلة لبناء الوطن .

ان كل واحد يجب أن يبقى فى مكانه ويبذل فيه كل جهده .

لا تنظروا الينا ، لقد اضطرتنا الظروف ان نخرج من اماكننا لنقوم بواجب مقدس ، ولقد كنا نتمنى لو لم تكن للوطن حاجة بنا الا فى صفوف الجيش كجنود محترفين ، واذن لبقينا فيه » .

ولم أشأ ساعتها أن أضرب لهم المثل من اعضاء مجلس قيادة الثورة ولم اشأ أن اقول لهم انهم قبل أن يدعوهم الطارىء الذى دعاهم الى الواجب الأكبر كانوا يبذلون فى عملهم كل جهدهم . أساتذة فى كلية أركان الحرب ، وهذا دليل امتيازها من ناحيتهم كجنود محترفين .

وكذلك لم اشأ ان أقول لهم ان ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، هم عبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم ، وكمال الدين حسين رقوا ترقيات استثنائية فى ميدان القتال فى فلسطين .

لم اشأ أن أقول لهم شيئا من هذا ، لأنى لا اريد أن افاخر الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة وهم اخوتى وزملائى .

* * *

واعترف أن هذا الحال كله سبب لى ازمة نفسية كئيبة .

ولكن التجارب فيما بعد ، وتأمل هذه التجارب واستخلاص معانيها الحقيقية ، خففت من وقع الأزمة فى نفسى ، وجعلتنى التمس لهذا كله اعذارا من الواقع عثرت عليها حين اتضحت أمامى — الى حد ما — الصورة الكاملة لحالة الوطن ، واكثر من هذا أعطتنى الجواب عن السؤال الذى قلت انه طالما راودنى ، وهو :

« هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو ؟ » .

والجواب : نعم ، ولم يكن هناك مهرب أو مفر !

وأنا الآن أستطيع ان اقول أننا نعيش فى ثورتين وليس فى ثورة واحدة .

ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان :

ثورة سياسية يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد اقام فى أرضه دون رضاه .

وثورة اجتماعية ، تتصارع فيها طبقاته ، ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد .

لقد سبقتنا على طريق التقدم البشرى شعوب مرت بالثورتين ولكنها لم تعشهما معا . وانما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين ، اما نحن فان التجربة الهائلة التى امتحن بها شعبنا هى أن تعيش الثورتان معا فى وقت واحد .

وهذه التجربة الهائلة مبعثها أن لكل من الثورتين ظروفا مختلفة تتنافر تنافرا عجيبا ، وتتصادم تصادما مروعا .

وان الثورة السياسية تتطلب لنجاحها وحدة جميع عناصر الأمة وترابطها وتساندها ونكرانها لذاتها فى سبيل الوطن كله .

الثورة الاجتماعية ، من أول مظاهرها ، تزلزل القيم وتخلخل العقائد ، تصارع المواطنين مع انفسهم افرادا وطبقات ، وتحكم الفساد والشك والكراهية .. والأنانية ..

وبين شقى الرحى هذين ، قدر لنا ان نعيش اليوم فى ثورتين : ثورة تحتم علينا أن نتحد ، ونتحاب ، ونتفانى فى الهدف . وثورة تفرض علينا – برغم ارادتنا – أن نتفرق ، وتسودنا البغضاء ، ولا يفكر كل منا الا فى نفسه .

وبين شقى الرحى هذين – مثلا – ضاعت ثورة ١٩١٩ ولم تستطع أن تحقق النتائج التى كان يجب أن تحققها .

الصفوف التى تراصت فى سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان ، لم تلبث الا قليلا حتى شغلها الصراع فيما بينها افرادا وطبقات .

وكانت النتيجة فشلا كبيرا ، فقد زاد الطغيان بعدها تحكما فينا ، سواء بواسطة قوات الاحتلال السافرة ، أو بصنائع الاحتلال المقنعة التى كان يتزعمها فى ذلك الوقت السلطان فؤاد وبعده

وق ، ولم يحصد الشعب الا الشكوك فى نفسه ، والكراهية والبغضاء والأحقاد فيما بين أفراده وطبقاته .

وشحب الأمل الذى كان ينتظر ان تحققه ثورة ١٩١٩ .

* * *

ولقد قلت شحب الأمل ، ولم اقل تلاشى ، ذلك لأن قوى المقاومة الطبيعية التى تدفعها الآمال الكبيرة التى تراود شعبنا ، كانت لاتزال تعمل عملها وتستعد لمحاولة جديدة .

وكان ذلك هو الحال الذى ساد بعد ثورة ١٩١٩ ، والذى فرض على الجيش أن يكون وحده القوة القادرة على العمل .

كان الموقف يتطلب أن تقوم قوة يقرب ما بين افرادها اطار واحد ، يبعد عنهم الى حد ما صراع الأفراد والطبقات ، وان تكون هذه القوة من صميم الشعب ، وأن يكون فى استطاعة افرادها أن يثق بعضهم ببعض ، وان يكون فى يدهم من عناصر القوة المادية ما يكفل لهم عملا شريفا حاسما ، ولم تكن هذه الشروط تنطبق الا على الجيش .

وهكذا لم يكن الجيش — كما قلت — هو الذى حدد دوره فى الحوادث، وانما العكس كان أقرب الى الصحة، وكانت الحوادث وتطوراتها هي التى حددت للجيش دوره فى الصراع الكبير لتحرير الوطن .

ولقد أدركت منذ البداية أن نجاحنا يتوقف على ادراكنا الكامل لطبيعة الظروف التى نعيش فيها من تاريخ وطننا ، فاننا لم نكن نستطيع أن نغير هذه الظروف بجرة قلم ، وكذلك لم نكن نستطيع أن نؤخر عقارب الساعة او نقدمها ونتحكم فى الزمن ... وكذلك لم يكن فى استطاعتنا ان نقوم على طريق التاريخ بمهمة جندى المرور فنوقف مرور ثورة حتى تمر ثورة اخرى ، ونحول

بذلك دون وقوع حادث اصطدام ، وانما كان الشيء الوحيد الذي نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الامكان وننجو من أن يطحننا شقا الرحى !

وكان لابد أن نسير في طريق الثورتين معا .

ويوم سرنا في طريق الثورة السياسية فخلعنا فاروقا عن عرشه ، سرنا خطوة مماثلة في طريق الثورة الاجتماعية فقررنا تحديد الملكية .

وما زلت حتى اليوم أعتقد أنه ينبغي أن تظل ثورة ٢٣ يوليو محتفظة بقدرتها على الحركة السريعة والمبادأة ، لكي تستطيع أن تحقق معجزة السير في ثورتين في وقت واحد ، مهما يبدو في بعض الاحيان من التناقض في تصرفاتنا .

وحين جاءني واحد من أصدقائي يقول لي :

« انت تطالب بالاتحاد لمواجهة الانجليز ، وانت في نفس الوقت تسمح لمحاكم الغدر ان تستمر في عملها .. »

استمعت اليه ، وكانت في خيالي أزمتنا الكبيرة ، أزمة شقي الرحى :

أزمة تقتضينا أن نتحد صفا واحدا وننسى الماضي .

وثورة تفرض علينا أن نعيد الهيبة الضائعة لقيم الأخلاق ولا ننسى الماضي ! .

ولم أقل لهذا الصديق : ان منفذنا الوحيد الى النجاة ، أن نحتفظ — كما قلت — بسرعة الحركة والمبادأة ، وبالقدرة على أن نسير في طريقين في وقت واحد .

ولم اشأ أنا ذلك . ولا شاءه كل الذين شاركوا في ٢٣ يوليو

ولكن القدر شاء ، وتاريخ شعبنا ، والمرحلة التي يمر بها اليوم .

الجزء الثـانى

العمل الايجابى ـ الحماسة لا تكفى ـ الرصاص بتكلم ـ صراخ وعويل فى الليل ـ ما اسهل ان يراق الدم ـ جذور فى التاريخ ـ يا عزيز يا عزيز ـ الفولاذ ينهار ـ سوف يتبلور هذا المجتمع ـ أعصاب الناس وعقولهم ـ أغضبنا الجميع ـ هذه حدودنا وذلك واجبنا »

ولكن ما الذى نريد أن نصنعه ؟

وما الطريق اليه ؟

الحق انى فى معظم الأحيان كنت أعرف الاجابة على السؤال الأول . واخال انى لم اكن وحدى المنفرد بهذه المعرفة ، وانما كانت تلك المعرفة أملا انعقد عليه اجماع جيلنا كله .

اما الاجابة عن السؤال الثانى « ما طريقنا الى هذا الذى نريد ؟ » فانا أعترف انها تغيرت فى خيالى كما لم يتغير شيء آخر، واكاد اعتقد ايضا انها موضوع الخلاف الأكبر فى هذا الجيل !

وما من شك فى أننا جميعا نحلم بمصر المتحررة القوية .. ذلك أمر ليس فيه خلاف بين مصرى ومصرى .

* * *

أما الطريق الى التحرر والقوة .. فتلك عقدة العقد فى حياتنا .

ولقد واجهت تلك العقدة قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وظللت أواجهها بعد ذلك كثيرا حتى اتضحت لى زوايا كثيرة كانت الظلال تسقط عليها فتخفيها ، وبدت أمام بصيرتى آفاق كان الظلام الذى ساد وطننا قرونا طويلة يلفها فلا أراها !

ولقد احسست منذ انبثق الوعى فى وجدانى ، أن العمل الايجابى وجب ان يكون طريقنا .. ولكن أى عمل !

ولقد تبدو كلمة « العمل الايجابى » على الورق كافية لتحل المشكلة . ولكنها فى الحياة ، وفى الظروف العسيرة التى عاشها جيلنا ، وفى المحن التى كانت تنشب اظفارها فى مقدرات وطننا لم تكن كافية .

وفى فترة من حياتى كانت الحماسة هى العمل الايجابى فى تقديرى . ثم تغير مثلى الأعلى فى العمل الايجابى وآصبحت آرى أنه لا يكفى أن تضج أعصابى وحدى بالحماسة ، وانما على ان انقل حماستى كى تضج بها أعصاب الآخرين ..

وفى تلك الأيام قدت مظاهرات فى مدرسة النهضة ، وصرخت من اعماقى بطلب الاستقلال التام ، وصرخ ورائى كثيرون .. ولكن صراخنا ضاع هباء وبددته الرياح اصداء واهنة لا تحرك الجبال ولا تحطم الصخور .

ثم اصبح العمل الايجابى فى رايى أن يجتمع كل زعماء مصر ليتحدوا على كلمة واحدة ، وطافت جموعنا الهاتفة الثائرة ببيوتهم واحدا واحدا تطلب اليهم باسم شباب مصر أن اجتمعوا على كلمة واحدة .. ولكن اتحادهم على كلمة واحدة ، كان فجيعة لايمانى .. فان الكلمة الواحدة التى اجتمعوا عليها كانت معاهدة سنة ١٩٣٦

* * *

وجاءت الحرب العالمية الثانية .. وما سبقها بقليل على شبابنا فالهبته وأشاعت النار فى خلجاته ، فبدا اتجاهنا ، اتجاه جيل باكمله ، يسير الى العنف .

واعترف ــ ولعل النائب العام لا يؤاخذنى بهذا الاعتراف ــ أن الاغتيالات السياسية توهجت فى خيالى المشتعل فى تلك الفترة على أنها العمل الايجابى الذى لا مفر من الاقدام عليه اذا كان يجب أن ننقذ مستقبل وطننا .

وفكرت فى اغتيال كثيرين وجدت انهم العقبات التى تقف بين وطننا وبين مستقبله، ورحت افند جرائمهم، واضع نفسى موضع الحكم على أعمالهم ، وعلى الاضرار التى الحقتها بهذا الوطن ، ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذى يجب أن يصدر عليهم .

وفكرت فى اغتيال الملك السابق وبعض رجاله الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا .

ولم أكن وحدى فى هذا التفكير .

ولما جلست مع غيرى انتقل بنا التفكير الى التدبير .

وما أكثر الخطط التى رسمتها فى تلك الأيام، وما أكثر الليالى التى سهرتها ، أعد العدة للأعمال الايجابية المنتظرة .

كانت حياتنا فى تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة .

كانت لنا أسرار هائلة ، وكانت لنا رموز ، وكنا نتستر بالظلام، وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل ، وكانت طلقات الرصاص هى الأمل الذى نحلم به !

وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الاتجاه ، ومازلت أذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع فى الطريق الى نهايته .

والحق أننى لم أكن فى أعماقى مستريحا الى تصور العنف على أنه العمل الايجابى الذى يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا .

كانت فى نفسى حيرة ، تمتزج فيها عوامل متشابكة ، عوامل من الوطنية ومن الدين ، ومن الرحمة ومن القسوة ، ومن الايمان ومن الشك ، ومن العلم ومن الجهل .

ورويدا رويدا وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التى توهجت فى خيالى ، تخبو جذوتها وتفقد قيمتها فى قلبى كتحقيق للعمل الأيجابى المنتظر .

وأذكر ليلة حاسمة فى مجرى أفكارى وأحلامى فى هذا الاتجاه، كنا قد أعددنا العدة للعمل .

واخترنا واحدا قلنا انه يجب أن يزول من الطريق .

ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ووضعنا الخطة بالتفاصيل

وكانت الخطة أن نطلق الرصاص عليه وهو عائد الى بيته فى الليل .

ورتبنا فرقة الهجوم التى تتولى اطلاق النار ، ورتبنا فرقة الحراسة التى تحمى فرقة الهجوم ، ورتبنا فرقة تنظيم خطة الافلات الى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح .

وجاءت الليلة الموعودة وخرجت بنفسى مع جماعات التنفيذ .

وسار كل شىء طبقا لما تصورناه .

كان المسرح خاليا كما توقعنا ، وكمنت الفرق فى أماكنها التى حددت لها ، واقبل الواحد الذى كان يجب أن يزول ، وانطلق نحوه الرصاص ..

وانسحبت فرقة التنفيذ ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة ، وبدات عملية الافلات الى النجاة ، وادرت محرك سيارتى وانطلقت اغادر المسرح الذى شهد عملنا الايجابى الذى رتبناه .

وفجاة دوت فى سمعى اصوات صراخ وعويل ، وولولة امراة ورعب طفل ، ثم استغاثة متصلة محمومة .

وكنت غارقا فى مجموعة من الانفعالات الثائرة ، والسيارة تندفع بى مسرعة .

ثم ادركت شيئا عجيبا .

كانت الاصوات مازالت تمزق سمعى .

الصراخ والعويل والولوله والاستغاثة المحمومة .

لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسرى الصوت ، ومع ذلك بدا ذلك كله يلاحقنى ويطاردنى .

ووصلت الى بيتى ، واستلقيت على فراشى ، وفى عقلى حمى ، وفى قلبى وضميرى غليان متصل .

وكانت اصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة مازالت تطرق سمعى .

ولم انم طوال الليل ..

بقيت مستلقيا على فراشي فى الظلام ، اشعل سيجارة وراء سيجارة ، واسرح مع الخواطر الثائره ، بم نتبدد كل حواطرى على الأصوات التى تلاحقنى .

* اكنت على حق ؟

واقول لنفسى فى يقين !

— دوافعى كانت من اجل وطنى !

* اكانت تلك الوسيلة التى لا مفر منها ؟

واقول لنفسى فى شك :

— ماذا كان فى استطاعتنا أن نفعل ؟

* ايمكن حقا أن يتغير مستقبل بلدنا اذا خلصناه من هذا الواحد او من غيره ، أم المسألة أعمق من هذا ؟

واقول لنفسى فى حيرة :

— اكاد احس ان المسالة اعمق ..

* اننا نحلم بمجد أمة فما هو الأهم ؟ المضى من يجب أن يمضى ام يجىء من يجب أن يجىء ..

واقول لنفسى واشعاعات من النور تتسرب بين الخواطر المزدحمة .

ــ بل المهم أن يجىء من يجب أن يجىء .. اننا نحلم بمجد أمة .. ويجب أن يبنى هذا المجد !

واقول لنفسى ومازلت اتقلب فى فراشى فى الغرفة التى ملأها الدخان وتكاثفت فيها الانفعالات !

ــ واذن ؟

ــ أسمع هاتفا يرد على !

ــ واذن ماذا ؟

واقول لنفسى فى يقين هذه المرة !

ــ اذن يجب ان يتغير طريقنا .. ليس ذلك هو العمل الايجابى الذى يجب أن نتجه اليه .. المسالة اعمق جذورا واكثر خطورة وابعد اغوارا ..

واحس براحة نفسية صافية ، ولكن الصفاء ، ما يلبث أن المزقه هو الآخر اصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة ، تلك التى مازالت أصداؤها ترن فى أعماقى ..

ووجدت نفسى اقول فجأة !

ــ ليته لا يموت !

وكان عجيبا ان يطلع على الفجر ، وانا اتمنى الحياة للواحد الذى تمنيت له الموت فى المساء !

وهرعت فى لهفة الى احدى صحف الصباح .. واسعدنى أن الرجل الذى دبرت اغتياله .. قد كتب له النجاة .

ولكن تلك لم تكن المشكلة الأساسية .

وانما المشكلة الأساسية .. هى العثور على العمل الايجابى !

ومنذ ذلك الوقت بدأ تفكيرنا الحقيقى فى شىء أعمق جذورا واكثر خطورة وابعد اغوارا .

وبدانا نرسم الخطوط الأولى فى الصورة التى تحققت مساء ۲۳ يوليو ، ثورة منبعثة من قلب الشعب ، حاملة لأمانيه ، مكملة لنفس الخطوات التى خطاها من قبل على طريق مستقبله .

ولقد بدات هذا الحديث بسؤالين :

أولهما : ما الذى نريد أن نصنعه ؟

والثانى : وما طريقنا اليه ؟

وقلت ان الاجابة عن السؤال الأول أمل انعقد عليه الاجماع .

اما السؤال الثانى : ما طريقنا الى الذى نريد أن نصنعه ؟ فهو الذى اطلت فيه الكلام حتى وصلت الى ۲۳ يوليو !

ولكن اكان الذى حدث يوم ۲۳ يوليو هو كل ما نريد ان نصنعه ؟!

المؤكد أن الجواب بالنفى ، فان تلك لم تكن الا الخطوة الأولى على الطريق .

والحق ان فرحة النجاح فى ۲۳ يوليو لم تخدعنى ، ولم تصور لى ان الآمال قد تحققت ، وأن الربيع قد جاء .. بل لعل العكس هو الصحيح ..

لقد كانت كل دقيقة تحمل الى انتصارا جديدا للثورة ، تحمل الى فى نفس الوقت عبئا ضخما ثقيلا تلقيه بلا مبالاة فوق كتفى .

ولقد قلت فى الجزء الأول من هـذا الحـديث : « انى كنت اتصور قبل ٢٣ يوليو ان الأمة كلها متحفزة متاهبة ، وانها لا تنتظر الا طليعة تقتحم أمامها السور فتندفع وراءها صفوفا متراصة منتظمة زاحفة » .

وقلت : اننى تصورت دورنا انه دور الطليعة ، وكنت اتصور أنه لن يستغرق أكثر من بضـع دقائق يلحق بنا بعـدها زحف الصفوف المنتظمة .

ورسمت ايضـا فى ذلك الجزء صـورة للخلاف والفوضى والأحقاد والشهوات التى انطلقت من عقالها فى تلك اللحظات . كل منها يحاول بأنانية أن يستغل الثورة لتحقيق اهداف بعينها .

ولقد قلت وسأظل اقول أن تلك كانت اقسى مفاجأة فى حياتى .
ولكن اشهد انه كان يجب ان اتوقع ان يحدث الذى حدث .
لم يمكن أن نضغط على زر كهربائى فتتحق احلامنا .
ولم يكن يمكن فى غمضة عين أن تزول رواسب قرون ومخلفات اجيال .

ولقد كان من السهل وقتها ـ وما زال سـهلا حتى الآن أن نريق دماء عشرة أو عشرين او ثلاثين ، فنضع الرعب والخوف فى اكثر من النفوس المترددة ونرغمها على أن تبلتع شهواتها واحقادها وأهواءها .

ولكن اى نتيجة كان يمكن أن يؤدى اليها مثل هذا العمل ؟

ولقد كنت ارى أن الوسيلة لمواجهة مشكلة من المشاكل هى ردها الى اصلها ومحاولة تتبع الينبوع الذى بدأت منه .

وكان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر الى الظروف التاريخية التى مر بها شعبنا والتى تركت فى نفوسـنا جميعا تلك الآثار وصنعت منا ما نحن عليه الآن ..

ولقد قلت مرة أني لا أريد أو أدعي لنفسي مقعد استاذ التاريخ ، فذلك آخر ما يجري اليه خيالي ، وقلت اني ساحاول محاولات تلميذ مبتدىء في التاريخ .

لقد شاء لنا القدر أن نكون على مفرق الطرق من الدنيا .

وكثيرا ما كنا معبرا للغزاة ، ومطمعا للمغامرين ، ومرت بنا ظروف كثيرة يستحيل علينا أن نعلل العوامل الكامنة في نفوس شعبنا الا اذا وضعنا موضع الاعتبار .

وفي رأيي أنه لا يمكن اغفال تاريخ مصر الفرعوني ، ثم تفاعل الروح اليوناني مع روحنا ، ثم غزو الرومان ، والفتح الاسلامي وموجات الهجرة العربية التي أعقبته .

وفي رأيي أيضا أنه يجب التوقف طويلا عند الظروف التي مرت علينا في العصور الوسطى ، فان تلك الظروف هي التي وصلت بنا الى ما نحن عليه الآن .

واذا كانت الحروب الصليبية بداية فجر النهضة في أوروبا ، فقد كانت بداية عهود الظلام على وطننا .

فلقد تحمل شعبنا وحده معظم أعباء الحروب الصليبية ، وخرج بعدها فقيرا ، معدما ، منهوك القوى .

وفي نفس الوقت الذي هدته المعركة فيه ، شاءت له الظروف أن يعاني الذل تحت سنابك خيول الطغاة القادمين من المغول والشركس ...

كانوا يجيئون الى مصر عبيدا فيفتكون بأمرائهم ويصبحون هم الأمراء .

وكانوا يساقون اليها مماليك فلا تمضي عليهم فترة في البلد الطيب الوديع حتى يصبحوا ملوكا .

واصبح الطغيان والظلم والخراب ، طابع الحكم فى مصر على عهدهم الذى عاشت مصر فى مجاهله قرونا طويلة .

كان المماليك يعتبرونها غنيمة سائغة ، وكان الصراع الرهيب بينهم هو على نصيب كل منهم فى الغنيمة .

وكانت ارواحنا ، وثرواتنا ، واراضينا ، هى الغنيمة .

واحيانا حينما اعود الى تقليب صفحات من تاريخنا ، احس بالاسى يمزق نفسى ازاء تلك الفترة التى تكون فيها اقطاع طاغ لم يجعل له من عمل الا مص دماء الحياة من عروقنا ، واكثر من هذا سحب بقايا الاحساس بالقوة والكرامة من هذه العروق . وترك فى أعماق نفوسنا تأثيرا يتعين علينا أن نكافح طويلا لكى نتغلب عليه ...

والواقع أن تصورى لهذا التأثير يعطينى فى كثير من الأحيان تفسيرا لبعض المظاهر فى حياتنا السياسية .

احيانا مثلا يخيل الى ان كثيرين يقفون من الثورة موقف المتفرج الذى لا يعنيه من الأمر الا مجرد انتظار نتيجة معركة يتصارع فيها طرفان لا تربطه بأيهما علاقة .

واحيانا أثور على هذا الوضع ، واحيانا أقول لنفسى ولبعض من زملائى :

لماذا لا يقدمون ؟ ولماذا لا يخرجون من المكامن التى وضعوا فيها انفسهم ، ليتكلموا ويتحركوا ؟

ولا أجد تفسيرا لهذا الا رواسب حكم المماليك .

كان الأمراء يتصارعون ، ويتطاحن فرسانهم فى الشوارع ، ويهرع الناس الى بيوتهم يغلقونها عليهم بعيدين عن هذا الصراع الذى لا دخل لهم فيه .

واحيانا يخيل الى اننا نلجأ الى خيالنا نكلفه ان يحقق لنا في اطار الوهم ما نريده ، ونستمع نحن بهذا الوهم ونقعد به عن محاولة تحقيقه .

ولم يتخلص كثيرون منا من هذا الشعور بعد ، ولم يهضموا ان البلد بلدهم وانهم سادته وأصحاب الأمر فيه .

ولقد ظللت مرة احاول ان افهم عبارة كثيرا ما هتفت بها طفلا صغيرا حينما كنت ارى الطائرات في السماء .

لقد كنت أصيح :

« يا ربنا يا عزيز ... داهية تاخد الانجليز » .

ولقد اكتشفت فيما بعد أننا ورثنا هذه العبارة عن أجدادنا على عهد المماليك ، ولم تكن يومها منصبة على الانجليز ، وانما حورناها نحن أو حورتها الرواسب الكامنة فينا والتى لم تتغير وان تغير اسم الظالم ، فقد كان أجدادنا يقولون :

« يا رب يا متجلى ... اهلك العثملى .. » .

وبنفس الروح التى لم تتغير جرى المعنى على لساننا وان تغير اسم « الانجليز » باسم العثمانيين طبقا للتغيرات السياسية التى توالت على مصر بين العهدين ..

ثم ماذا حدث لنا بعد عهد المماليك ؟

جاءت الحملة الفرنسية ، وتحطم الستار الحديدى الذى فرضه المغول علينا ، وتدفقت علينا أفكار جديدة ، وتفتحت لنا آفاق لم يكن لنا بها عهد .

وورثت اسرة محمد على كل ظروف المماليك ، وان حاولت ان تضع عليها من الملابس ما يناسب زى القرن التاسع عشر .

وبدأ اتصالنا بأوروبا والعالم كله من جديد .

بدأت اليقظة الحديثة !

وبدأت اليقظة بأزمة جديدة .

لقد كنا فى رأيى ـ أشبه بمريض قضى زمنا فى غرفة مغلقة ، واشتدت الحرارة داخل الغرفة المغلقة حتى كادت أنفاس المريض تختنق ...

وفجأة هبت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب ، وتدافعت تيارات الهواء الباردة تلسع جسد المريض الذى ما زال يتصبب عرقا .

لقد كان فى حاجة الى نسمة هواء .. فانطلقت عليه اعصارات ، وانشبت الحمى اظافرها فى الجسد المنهوك القوى .

هذا هو ما حدث لمجتمعنا تماما ، وكانت تجربة محفوفة بالمخاطر !

كان المجتمع الأوروبى قد سار فى تطوره بنظام ، واجتاز الجسر بين عصر النهضة من أعقاب القرون الوسطى الى القرن التاسع عشر خطوة خطوة ، وتلاحقت مراحل التطور واحدة اثر أخرى .

أما نحن فقد كان كل شىء مفاجئا لنا .

كنا نعيش داخل ستار من الفولاذ فانهار فجاة

كنا قد انقطعنا عن العالم واعزلنا احوالة ، خصوصا بعد تحول التجارة مع الشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح ، فاذا نحن نصبح مطمع دول أوروبا وممرا الى مستعمراتها فى الشرق والجنوب .

وانطلقت علينا تيارات من الأفكار والآراء لم تكن المرحلة التي وصلنا اليها في تطورنا تؤهلنا لقبولها .

كانت ارواحنا مازالت تعيش في آثار القرن الثالث عشر ، وان جرت في نواحيها المختلفة مظاهر القــرن التاسع عشر ثم القرن العشرين .

وكانت عقولنا تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التي تخلفنا عنها خمسة قرون او يزيد ، وكان الشوط ماضيا والسباق مروعا مخيفا ..

* * *

وما من شك في أن هذا الحال هو المسئول عن عدم وجود وأي عام قوي متحد في بلادنا ، فان الفارق بين الفرد والفرد كبير ، والفارق بين الجيل والجيل شاسع ..

ولقد جاء على وقت كنت اشكو فيه من ان الناس لا يعرفون ماذا يريدون ، وأن اجماعهم لا ينعقد على طريق واحد يسيرون فيه ، ثم ادركت بعدها أنني اطلب المستحيل ، وأنني أسقط من حسابي ظروف مجتمعنا ..

اننا نعيش في مجتمع لم يتبلور بعد ، ومازال يفور ويتحرك ولم يهدأ حتى الآن أو يتخذ وضعه المســتقر ويواصل تطــوره التدريجي بعد مع باقي الشعوب التي سبقتنا على الطريق ..

وأنا أعتقد ، دون أن أكون في ذلك متملقا لعواطف الناس ، أن شعبنا صنع معجزة ، ولقد كان يمكن أن يضيع أي مجتمع تعرض لهذه الظروف التي تعرض لها مجتمعنا ، وكان يمكن أن تجرفه هذه التيارات التي تدفقت علينا .. ولكننا صمدنا للزلزال العنيف ..

صحيح اننا كدنا نفقد توازننا فى بعض الظروف ، ولكنا بصفة

وانا انظر احيانا الى اسرة مصرية عادية من آلاف الاسر التى تعيش فى العاصمة .

الأب مثلا فلاح معمم من صميم الريف .

والأم سيدة منحدرة من اصل تركى .

وأبناء الأسرة فى مدارس على النظام الانجليزى .

وفتياتها فى مدارس على النظام الفرنسى .

كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين .

انظر الى هذا واحس فى اعماقى بفهم للحيرة التى نقاسيها والتخطيط الذى يفترسنا ، ثم اقول لنفسى :

ـ سوف يتبلور هذا المجتمع ، وسوف يتماسك ، وسوف يكون وحدة قوية متجانسة ، انما ينبغى أن نشد اعصابنا ونتحمل فترة الانتقال .

تلك اذن هى الأصول التى انحدرت منها احوالنا اليوم ، وهذه هى الينابيع التى تجرى منها ازمتنا ، فاذا أضفت الى هذه الجذور الاجتماعية ، ظروفا من اجلها طردنا « فاروق » ، ومن اجلها نريد تحرير بلادنا من أى جندى غريب ـ اذا اضفت هذا كله ، لخرجنا الى الأفق الواسع الذى نعمل فيه ، والذى تهب عليه الرياح من كل ناحية . وتزمجر فى جنباته العواصف الهوج ، وتتوهج فيه البروق وتهدر الرعود ، والذى قلت أنه من الظلم ان يفرض فيه علينا حكم الدم ، مع مراعاة كل هذه الظروف والملابسات .

واذن ما هو الطريق ؟

وما هو دورنا على هذا الطريق ؟

اما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية .

وأما دورنا فيه فدور الحراس فقط ، لا يزيد ولا ينقص ... الحراس لمدة معينة بالذات موقوتة باجل .

وما اشبه شعبنا الآن بقافلة كان يجب أن تلزم طريقا معينا ؛ وطال عليها الطريق ، وقابلتها المصاعب ، وانبرى لها اللصوص وقطاع الطرق ، وضللها السراب ، فتبعثرت القافلة . كل جماعة منها شردت فى ناحية ، وكل فرد مضى فى اتجاه .

وما اشبه مهمتنا فى هذا الوضع بدور الذى يمضى فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ثم يتركهم يواصلون السير .

هذا هو دورنا ولا أتصور لنا دورا سواه .

ولو خطر لى اننا نستطيع أن نحل كل مشاكل وطننا لكنت واهما ، وانا لا احب أن أتعلق بالأوهام .

اننا لا نملك القدرة على ذلك ، ولا نملك الخبرة لنقوم به .

انما كل عملنا أن نحدد معالم الطريق كما قلت ، وان نجرى وراء الشاردين فنردهم الى حيث ينبغى أن يبداوا المسير ، وأن نلحق بالسائرين وراء السراب فنقنعهم بعبث الوهم الذى يجرون وراءه .

ولقد كنت مدركا منذ البداية انها لن تكون مهمة سهلة ، وكنت أعلم مقدما انها ستكلفنا الكثير من شعبيتنا .

لقد كان يجب أن نتكلم بصراحة ، وأن نخاطب عقول الناس ؛ وكان الذين سبقونا قد تعودوا أن يعطوا الوهم ، وأن يقولوا للناس ما يريد الناس أن يسمعوه !

وما أسهل الحديث الى غرائز الناس ، وما أصعب الحديث الى عقولهم !

وغرائزنا جميعا واحدة ، اما عقولنا فموضع الخلاف والتفاوت وكان ساسة مصر في الماضي من الذكاء بحيث أدركوا هذه الحقيقة فاتجهوا الى الغريزة يخاطبونها . اما العقل فتركوه هائما على وجهه في الصحراء .

وكنا نستطيع أن نفعل نفس الشيء .

كنا نستطيع ان نملأ اعصاب الناس بالكلمات الكبيرة التي لا تخرج عن جو الوهم والخيال ، أو تدفعهم وراء أعمال غير منظمة لم تعد لها العدة أو تتخذ لها أهبة ، أو كنا نستطيع أن نترك أصواتهم تبح من كثرة هتافهم !

« يا ربنا يا عزيز .. داهية تاخد الانجليز » .

تماما كما كان أجدادنا تبح اصواتهم ايام المماليك من كثرة هتافهم !

« يا رب يا متجلي ... اهلك العثمللي » .

وبعدها لا شيء !

لكن أكانت تلك مهمتنا التي شاءها لنا القدر ؟

وما الذي كنا نستطيع ان نحققه فعلا اذا سرنا في هذا السبيل؟

ولقد قلت في الجزء الأول من هذا الحديث أن نجاح الثورة يتوقف على ادراكها لحقيقة الظروف التي تواجهها ، وقدرتها على الحركة السريعة . واضيف الآن الى ذلك أنها يجب ان تتحرر من آثار الألفاظ البراقة ، وان تقدم على ما تتصور انه واجبها مهما كان الثمن من شعبيتها ومن الهتاف بحياتها والتصفيق لها !

والا فاننا نكون قد تخلينا عن امانة الثورة وعن واجباتها .

* * *

وكثيرا ما يجيئنى من يقول لى :

ـ لقد اغضبتم كل الناس .

وعلى مثل هذه الملاحظة ارد دائما :

ـ ليس غضب الناس هو العامل المؤثر فى الموقف ، وانما السؤال هل كان الذى اغضبهم يعمل لصالح الوطن او لغيره ؟

انا ادرك اننا اغضبنا كبار الملاك ..

لكن ، هل كان يمكن الا نغضبهم ونترك تربة وطننا وفينا من يملك منها عشرات الألوف من الأفدنة وفينا من لا يملك قطعة يدفن فيها بعد أن يموت ؟

وانا ادرك اننا اغضبنا الساسة القدماء !

ولكن هل كان يمكن الا نغضبهم ونترك وطننا فريسة لشهواتهم وفسادهم وصراعهم على مغانم الحكم ؟

وانا ادرك اننا اغضبنا عددا كبيرا من الموظفين ..

ولكن هل كان يمكن أن نعطى أكثر من نصف ميزانية الدولة مرتبات للموظفين ولا نستطيع ـ كما صنعنا بالفعل ـ ان نخصص اربعين مليونا من الجنيهات للمشروعات الانتاجية ؟

ماذا علينا لو كنا فتحنا ـ كما فعل غيرنا ـ خزائن الدولة ووزعنا ما فيها على الموظفين وليكن بعد ذلك الطوفان ، وليكن ـ أيضا ـ أن يجىء العام القادم فلا تستطيع الحكومة أن تدفع مرتبات موظفيها أصلا وأساسا ..

وما كان أسهل أن نرضى هؤلاء جميعا وغيرهم ... ولكن ما الثمن الذى كان وطننا سيدفعه من آماله ومستقبله فى مقابل هذا الرضا ؟ ...

* * *

ذلك دورنا الذى حدده لنا تاريخ وطننا ، ولا مفر امامنا من أن نقوم به ، مهما كان الثمن الذى ندفعه .

ولم نخطىء ابدا فى فهم هذا الدور ، ولا فى ادراك طبيعة الواجبات التى يلقيها علينا .

تلك خطوات لاصلاح آثار الماضى ورواسبه مضينا فيها وتحملنا من اجلها كل شيء .

فلما جاء الكلام عن المستقبل قلنا اننا لا نملك هذا وحدنا .
فمن أجل ضمان الحياة السياسية فى المستقبل ذهبنا الى عدد من قادة الرأى من مختلف الطبقات والعقائد وقلنا لهم .

- ضعوا للبلد دستورا يصون مقدساته .

وكانت لجنة وضع الدستور .

ومن اجل ضمان الحياة الاقتصادية فى المستقبل ذهبنا الى اكبر الأساتذة فى مختلف نواحى الخبرة وقلنا لهم :

نظموا للبلد رخاءه واضمنوا لقمة العيش لكل فرد فيه .

وكان مجلس الانتاج .

تلك حدودنا لم نتعداها !

ازالة الصخور والعقبات من الطريق ، مهما يكن الثمن .

والعمل للمستقبل من كل نواحيه مفتوح لكل ذوى الرأى والخبرة ، فرض لازم عليهم وليس لنا ان نستأثر به دونهم ، بل ان مهمتنا تقتضى أن تسعى لجمعهم من اجل مستقبل مصر .. مصر القوية المتحررة !

الجزء الثالث

بعد غيبة ثلاثة شهور ـ الزمان والمكان ـ القـدر لا يهزل ـ دوائر ثلاث ـ دور يبحث عن بطلة ـ فلسطين ليست بلدا غريبا ـ لقاء مع عرب فلسطين ـ أفلى اسرار الطيران ـ افكار فى ميـدان القتـال ـ الأرض والنجوم ـ نظرة الى مذكرات وايزمان ـ الكفاح الواحد وعناصره ـ القـوة بالأرقام ـ مسـئولياته فى افريقيا ـ الحكمة الحقيقية من الحج •

مرة ثالثة أعود الى فلسفة الثورة .

اعود اليها بعد غيبة طويلة امتدت الى اكثر من ثلاثة شهور حافلة بالأحداث والتطورات السريعة المتلاحقة .

ثلاثة شهور حاولت خلالها اكثر من مرة أن أجد الساعات التى اسجل فيها هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ، فعصفت رياح الأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة بهذه المحاولات وبعثرتها فى الفضاء .

ولكن الرياح التى عصفت بمحاولات التسجيل لم تعصف بالخواطر نفسها ، وصحيح ان هذه الخواطر لم تجر على ورق ، ولكنها ظلت تدور فى تفكيرى وتتفاعل مع غيرها وتبحث عن تفاصيل اخرى ، سواء فى ذاكرتى او فى الأيام ، تضيفها اليها لتكمل بها صورة صحيحة واضحة .

ولكن ما الصورة الصحيحة الواضحة التى أريد أن أرسمها هذه المرة ؟ وما علاقتها بالمحاولات التى قمت بها قبل ذلك ، فى الجزء الأول ثم فى الجزء الثانى من هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ؟

لقد تحدثت فى الجزء الأول عن بداية الثورة فى نفوسنا كأفراد ، وفى نفوسنا كنماذج عادية من شباب جيلنا ، وعن الثورة فى تاريخ أمتنا ، وعن يوم ٢٣ يوليو فى هذه الثورة .

وفى الجزء الثانى تحدثت عن محاولات على طريق الثورة ، وكيف حدد لنا تاريخ شعبنا هذه الطريق ، سواء فى نظرتنا المليئة بالعبر الى الماضى أو فى تطلعنا المفعم بالأمل الى المستقبل .

واذن فقد كان حديثى فى الجزاين السابقين عن الزمان ، ومن هنا اشعر بأن المكان يطالب بحقه ، واذن فليكن الحديث فى هذه المرة عنه .

وليس هدفى أن ادخل فى بحث فلسـفى معقـد عن الزمان والمكان . وانما الذى لا شك فيه هو ان العـالم كله ، لا وطننا فحسب ، هو نتيجة لتفاعل الزمان والمكان .

واذن كنت اقول اننا فى تصويرنا لاحوال وطننا لا نستطيع أن ننسى عنصر الزمان ، فاننا ايضا وبنسبة متساوية لا نستطيع ان ننسى عنصر المكان .

وبعبارة ابسط !

نحن الآن لا نستطيع ان نعـود الى القـرن العاشر ، نرتدى ملابسه التى تبدو لعيوننا غريبة مضحكة ، ونتوه فى افكاره التى تظهر امامنا اليوم اطباقا من الظلام خلت من كل شعاع .

وكذلك نحن الآن لا نستطيع ان نتصرف على اننا قطعة من الاسكا المتعلقة باقصى اصقاع الشمال ، او على اننا جزيرة « ويك » النائية المهجورة فى تيه الباسفيك .

الزمان اذن يفرض علينا تطوره .

والمكان أيضا يفرض علينا حقيقته .

ولقد حاولت مرتين ان امضى مع الزمان ، فلأحاول هذه المرة ان اتجول فى عالم المكان .

* * *

وثمة شىء يجب أن نتفق عليه اولا وقبل ان نمضى فى هذا الحديث ذلك هو تعريف حدود المكان بالنسبة لنا .

ان قال لى أحد أن المكان بالنسبة لنا هو هذه العاصمة التى نعيش فيها فانى أختلف معه . وان قال لى احد أن المكان بالنسبة لنا هو حدود بلادنا السياسية فانى ايضا اختلف معه .

ولو كان الأمر كله محصورا فى حدود عاصمتنا . أو فى حدود بلادنا السياسية لهان الأمر ، ولاقفلنا على انفسنا كل الأمر وعشنا فى برج عاجى نحاول أن نبتعد به بقدر ما نستطيع عن العالم ومشاكله وحروبه وازماته تلك التى تقتحم علينا أبواب بلادنا وتؤثر فينا دون ان يكون لنا فيها دخل أو نصيب .

ولقد مضى عهد العزلة .

وذهبت الأيام التى كانت فيها خطوط الأسلاك الشائكة التى تخطط حدود الدول تفصل وتعزل .

ولم يعد مفر أمام كل بلد من أن يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ليعلم من أين تجيئه التيارات التى تؤثر فيه ، وكيف يمكن ان يعيش مع غيره وكيف .. وكيف ..

ولم يعد مفر أمام كل دولة من ان تجيل البصر حولها تبحث من وضعها وظروفها فى المكان ، وترى ماذا تستطيع ان تفعل فيه وما هو مجالها الحيوى وميدان نشاطها ودورها الايجابى فى هذا العالم المضطرب .

وانا اجلس احيانا فى غرفة مكتبى وأسرح بخواطرى فى نفس هذا الموضوع أسائل نفسى :

- ما هو دورنا الايجابى فى هذا العالم المضطرب ، وأين هو المكان الذى يجب أن نقوم فيه بهذا الدور ؟

واستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر لنا من أن يدور عليها نشاطنا وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا .

ان القدر لا يهزل ، ليست هناك أحداث من صنع الصدفة ، ولا وجود يصنعه الهباء .

ولن نستطيع ان ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان .

ايمكن أن نتجاهل ان هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وان هذه الدائرة منا ونحن منها امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها . حقيقة وفعلا لا مجرد كلام ؟

ايمكن ان نتجاهل أن هناك قارة افريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها ، وشاء ايضا ان يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء اردنا أو لم نرد ؟ .

ايمكن ان نتجاهل أن هناك عالما اسلاميا تجمعنا واياه روابط لا تقرها العقيدة الدينية فحسب ، وانما تشدها حقائق التاريخ؟ »

وكما قلت مرة : ان القدر لا يهزل »

فليس عبثا ان بلدنا فى جنوب غرب آسيا يلاصق الدول العربية وتشتبك حياته بحياتها »

وليس عبثا أن بلدنا يقع فى شمال شرق افريقيا ، ويطل من عل على القارة السوداء التى يدور فيها اليوم أعنف صراع بين مستعمريها البيض وأهلها السود من أجل مواردها التى لا تحد »

وليس عبثا ان الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامى — الذى اغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الاسلام القديمة — تراجع الى مصر وآوى اليها فحمته مصر وانقذته عندما ردت غزو المغول على اعقابه فى عين جالوت »

اكل هذه حقائق اصيلة ذات جذور عميقة فى حياتنا ، لانستطيع مهما نحاول ان ننساها أو نفر منها »

* * *

ولست ادرى لماذا اذكر دائما عندما أصل الى هذه المرحلة من افكارى وانا جالس وحدى فى غرفتى شاردا مع الأفكار ، قصة مشهورة للشاعر الايطالى الكبير « لويدجى بيراندلو » اسماها : ست شخصيات تبحث عن ممثلين !

ان ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم ادوار بطولة مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه .

وان ظروف التاريخ ايضا مليئة بادوار البطولة المجيدة التى لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست ادرى لماذا يخيل الى دائما ان فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دورا هائما على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به ، ثم لست ادرى لماذا يخيل الى ان هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعبا منهوك القوى على حدود بلادنا يشير الينا ان نتحرك ، وان ننهض بالدور ونرتدى ملابسه فان احدا غيرنا لا يستطيع القيام به .

وأبادر هنا فأقول ان الدور ليس دور زعامة .

انما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ، يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور ايجابى فى بناء مستقبل البشر .

* * *

وما من شك فى أن الدائرة العربية هى من أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطا بنا .

فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا نفس الازمات ، وحين وقعنا تحت سنابك حيل الفزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك .

وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضـا بالدين ، فنقلت مراكز الاشـعاع الدينى ، فى حدود عواصمها ، من مكة ، الى الكوفة ، ثم الى القاهرة . ثم جمعها الجوار فى اطار وبطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية .

وانا أذكر فيما يتعلق بنفسى ان طلائع الوعى العـربى بدات تتسلل الى تفكيرى وانا طالب فى المدرسة الثانوية أخرج مع زملائى فى اضراب عام فى الثانى من شهر نوفمبر من كل سـنة احتجاجا على وعد بلفور الذى منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطنـا قوميا فى فلسطين ، اغتصبه ظلما من أصحابه الشرعيين .

وحين كنت اسـائل نفسى فى ذلك الوقت : لماذا اخرج فى حماسة ، ولمـاذا اغضب لهذه الأرض التى لم ارها ؟ لم اكن اجد فى نفسى سوى أصداء العاطفة .

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيرى حول هـذا الموضوع لما اصبحت طالبا فى الكلية الحربية أدرس تاريخ حمـلات فلسطين بصـفة خاصة ، وأدرس بصـفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التى جعلت منها فى القرن الأخير فريسة سهلة تتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة ! .

ثم بدأ الفهم يتضح وتتكشف الأعمدة التى تتركز عليها حقائقه لمـا بدأت أدرس وأنا طالب فى كليـة اركان الحرب حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل .

ولما بدأت ازمة فلسطين كنت مقتنعا فى أعماقى بأن القتال فى فلسطين ليس قتالا فى ارض غريبـة . وهو ليس انسياقا وراء عاطفة ، وانما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس ! .

* * *

واذكر يوما عقب صدور قرار تقسيم فلسطين فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعا واستقر رايهم على مساعدة المقاومة فى فلسطين . وذهبت فى اليوم التالى أطرق باب بيت الحاج امين الحسينى مفتى فلسطين ، وكان لا يزال يعيش فى الزيتون ، واقول له :

ـ انكم فى حاجة الى ضباط يقودون المعارك ويدربون المتطوعين وفى الجيش المصرى عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع ، وهم تحت امرك فى أى وقت تشاء !

وقال لى الحاج أمين الحسينى انه سعيد بهذه الروح ، ولكنه يرى أن يستأذن الحكومة المصرية قبل أن يقول شيئا .

ثم قال لى الحاج امين :

سوف اعطيك ردى بعد استئذان الحكومة .

وعدت اليه بعد أيام ، وكان رده ، الرد الذى حصل عليه من الحكومة ، هو الرفض !

ولم نسكت ..

وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز تدك المستعمرات اليهودية جنوبى القدس ، وكان قائد المدفعية كمال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التى تحولت الى مجلس قيادة الثورة .

أذكر سرا آخر كان ذات يوم أغلى أسرار الضباط الأحرار !

كان حسن ابراهيم قد سافر الى دمشق ، واتصل ببعض ضباط فوزى القاوقجى . وكان القاوقجى يقود قوات التحرير العربية ويستعد لمعركة حاسمة فاصلة فى المنطقة الشمالية من فلسطين .

ووضع حسن ابراهيم وعبد اللطيف البغدادى خطة جريئة للقيام بعمل حاسم فى المعركة التى تستعد لها قوات التحرير ..

وكانت الخطوط البارزة فى تلك الخطة هى أن قوات التحرير العربيــة لا تملك طيرانا يســاعدها فى المعــركة ويرجح النصر الى كفتها ، ولو انها حصلت على معونة من الجــو بضرب مركز فوق ميدان العملية ، لكان ذلك عاملا فاصلا ، ولكن من اين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم ؟ .

ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، وكان جو الرقابة على القوات المسلحة ـ بما فيها سلاح الطيران ـ حذرا متيقظا !

ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ منها الى تفاصيل الخطة ..

بدات فى مطار سلاح الطيران حركة عجيبة ، وبرز فيها نشاط واسع لاصلاح طائرات واعدادها ، وجهود واضحة فى التدريب سرت كالحمى فى نفوس عدد من الطيارين ..

ولم يكن هناك الا قلائل يعرفون السر ..

يعرفون أن الطائرات وقوادها قد اعدوا ليوم تجىء فيه من سوريا اشارة سرية ، فينطلقون بعــدها الى الجو ليشتركوا بكل قوتهم فى معركة حاسمة على الأرض المقدسة . ثم يتجهون بعدذلك الى مطار قرب دمشق ، ينزلون فيه ويترقبون الأحوال فى مصر ، ويتعرفون صدى هذه الحركة التى اقدموا عليها ، ثم يقررون كيف يتصرفون بعدها ! ..

وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك فى هذه العملية واذكر أن كثيرين كانوا قد رتبوا أمورهم على أن الظروف ربما تحول بينهم وبين العــودة الى الوطن قبــل ســنوات قد تطول وتمتد ..

وكان شعورنا فى اللجنة التنفيذية للضباط الاحرار . والمؤكد ان نفس الشـعور كان يراود خواطر كل الطيارين المشتركين فى السر الكبير ، ان هذه المخاطرة الجريئة لم تكن حبا فى المغامرة ، ولا كانت رد فعل للعاطفـة فى نفوسـنا ، انما كانت وعيا ظاهـرا لايماننا بأن رفح ليست آخـر حـدود بلادنا ، وأن نطاق سلامتنا يقضى علينا ان ندافع عن حدود اخواننا الذين شاءت لنا أحكام القدر ان نعيش معهم فى منطقة واحدة .

* * *

ولم تتم الخطة يومها .. لأننا لم نتلق الاشـارة السرية من سوريا .

وقضت الظروف بعد أن تدخل الجيوش العربية كلها الحرب فى فلسطين .

ولست أريد أن أدخل فى تفاصيل حرب فلسطين ـ الآن ـ فذلك بحث تتشعب فيـه الأحاديث ، وانما يعنينى من حرب فلسطين درس عجيب .

لقـد دخلتها شـعوب العـرب جميعـا بدرجة واحـدة من الحماسة ، واذن فهذه الشعوب جميعا تتشارك فى شعورها وفى تقديرها لحدود سلامتها .

ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة ، واذن فهى جميعـا ، كل منها فى بلادة ، قـد تعرضت لنفس العـوامل وحكمتها نفس القوى التى ساقتها الى الهزيمة ونكست راسـها بالذل والعار .

ولقد خلوت الى نفسى مرات كثيرة فى خنادق عراق المنشية وفى جحورها .

وكنت يومها اركان حرب الكتيبة السادسة التى كانت تقف فى ذلك القطاع وتدافع عنه احيانا وتهاجم فى اكثر الأحيان .

وكنت اخرج الى الاطلال المحطمة من حولى بفعل نيران العدو ثم اسبح بعيدا مع الخيال .

واحيانا كانت الرحلة مع الخيال تمضى بى بعيدا الى آفاق النجوم ، فاطل من هذا الارتفاع الشاق على المنطقة باكملها .

وكانت الصورة تبدو فى ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتى .

هذا هو المكان الذى نقبع محاصرين فيه ، هذه مواقع كتيبتنا وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط .

وهذه قوات العدو تحيط بنا .

وهذه قوات اخرى لنا .. هى ايضا محاصرة لا تستطيع الحركة الواسعة وان بقى لها مجال للمناورة المحدودة .

ان الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التى تتلقى منها الأوامر تحيطها بحصار وتلحق بها عجزا أكثر من الذى تصنعه بنا نحن القابعين فى منطقة الفالوجة .

ثم هذه قوات اخواننا فى السلاح وفى الوطن الكبير وفى المصلحة المشتركة وفى الدافع الذى جعلنا نهرول الى أرض فلسطين .

هذه هى جيوش اخواننا .. جيشنا جيشنا .. كلها ايضا بحكومتها .. لقد كانت جميعها تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها ولا ارادة الا بقدر ما تحركها أيدى اللاعبين .

وكانت شعوبنا جميعا تبدو فى مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة اخفت عنها عمدا ما يجرى ، وضللتها حتى عن وجودها نفسه .

واحيانا كنت اهبط من ارتفاع النجوم الى سطح الأرض ؟ فأحس اننى أدافع عن بيتى وعن أولادى ، ولا تعنينى احلامى الموهمة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ .

وكان ذلك عندما التقى فى تجوالى فوق الأطلال المحيطة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا فى براثن الحصار بعد ان خربت بيوتهم وضاع كل ما يملكون ، واذكر بينهم طفلة صغيرة كانت فى مثل عمر ابنتى ، وكنت اراها وقد خرجت الى الخطر والرصاص الطائش مندفعة امام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خرقة قماش .

وكنت دائما أقول لنفسى !

ـ قد يحدث هذا لابنتى !

وكنت مؤمنا ان الذى يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث ـ وما زال احتمال حدوثه قائما ـ لأى بلد فى هذه المنطقة ما دام مستسلما للعوامل والعناصر والقوى التى تحكمه الآن .

* * *

ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك فى فلسطين وعدت الى الوطن ، كانت المنطقة كلها فى تصورى قد اصبحت كلا واحدا .

وأيدت الحوادث التى جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد فى نفسى كنت اتابع تطورات الموقف فيها فأجد اصداء يتجاوب بعضها مع بعض .

كان الحادث يقع فى القاهرة فيقع مثيل له فى دمشق غدا،وفى بيروت وفى عمان ، وفى بغداد ، وغيرها .

وكان ذلك كله طبيعيا مع الصورة التى رسمتها التجارب فى نفسى .

منطقة واحدة ، ونفس الظروف ، نفس العوامل .. بل نفس القوى المتالبة عليها جميعا .

وكان واضحا ان الاستعمار هو أبرز هذه القوى .

حتى اسرائيل نفسها ، لم تكن الا اثرا من آثار الاستعمار . فلو لا ان فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطانى لما استطاعت الصهيونية ان تجد العون على تحقيق فكرة الوطن القومى فى فلسطين . ولظلت هذه الفكرة خيالا مجنونا ليس له اى امل فى واقع .

وأنا اكتب هذه الخوظر وامامى مذكرات حاييم وايزامان رئيس جمهورية اسرائيج ومنشئها الحقيقى ، وهى المذكرات التى نشرها فى كتابةالمشهور « التجربة والخطأ » وثمة عبارات معينة ذات طابع خاص تستوقفنى فيه .

ويستوقفنى قول وايزمان !

« لقد كان يجب أن تساعدنا دولة كبرى ، وكانت فى العالم دولتان تستطيع كل منهما مساعدتنا المانيا وبريطانيا .

أما المانيا فقد اثرت ان تبتعد عن كل تدخل .

وأما بريطانيا فقد أحاطتنا بالرعاية والعطف » .

ويستوقفنى بعد ذلك قول وايزمان !

« لقد حدثت فى المؤتمر الصهيونى السادس الذى عقدناه فى سويسرا أن وقف هرتزل يعلن يهود الدنيا بريطانيا العظمى ،

وبريطانيا العظمى وحدها دون كلّ دولّ الأرض ، قد اعترفت باليهود كأمة ذات مستقبل ، منفصلة عن غيرها ».

وانتا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن ، وبأن تكون لنا دولة ، وقرأ هرتزل خطابا من اللورد لاترسون نائبا عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى . وكان هذا الخطاب يقدم لنا أرض اوغندا لتكون وطنا قوميا .

وقرر اعضاء المؤتمر قبول هذا العرض .

ولكننا بعد ذلك كتمنا انفاسه فى المهد ودفناه دون ضجة .

وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا .

وعلى اثر هذا العرض الغنا لجنة من عدد كبير من علماء اليهود سافروا الى مصر للدراسة منطقة سيناء وقابلوا فى القاهرة اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر الذى اظهر كل العطف على أمانينا فى الوطن القومى .

ولقد قابلت بعدها لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذى بادرنى بسؤالى على الفور :

لماذا لم تقبلوا اقامة الوطن القومى فى أوغندا ؟

وقلت لبلفور :

ان الصهيونية حركة سياسية قومية هذا صحيح ، ولكن الجانب الروحى منها لا يمكن اغفاله ، وانا واثق تمام الوثوق اننا اذا اغفلنا الجانب الروحى فاننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسى القومى ».

ثم قلت لبلفور :

« ماذا تقول لو ان أحدا قال لك خذ باريس بدلا من لندن هل تقبل ؟ » .

ويستوقفني ايضا قول وايزمان :

« وعدت الى لندن فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ وكان الغرض من رجوعى اننى دعيت الى لندن لأشرف على كتابه مشروع وثيقة الانتداب البريطانى فى فلسطين .

وكان يجب ان تعرض هذه المسودة على عصبة الأمم لتصدر بها قرارا بعد أن وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الانتداب نفسها .

وكان لورد كيرزون قد ولى وزارة الخارجية محل بلفور ، وكان هو المسئول عن وضع مشروع الوثيقة .

وكان معنا فى لندن القانونى الشهير ابن كوهين : وهو من اقدر واضعى الصيغ القانونية فى العالم ، وكان أيريك ليس آدم سكرتير كيرزون يتعاون معنا .

كتبنا نحن فى مشروع الوثيقة عبارة أردنا ان نقيد بريطانيا فيها بوعد بلفور ، وبأن خطتها فى فلسطين قائمة على أساس الوطن القومى لليهود ، وكان نص العبارة التى كتبناها نحن :

« والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية فى فلسطين »

وقال كيرزون انه يقترح تخفيف العبارة حتى لا يهيج العرب عند قراءتها ، وقال انه يرى أن تكون كما يلى :

« والاعتراف بصلات اليهود وعلاقاتهم التاريخية فى فلسطين »

وكنت اود ان اســـتطرد طويلا مع وايزمان فى « التجربة والخطا » ولكننا جميعا نعــلم ان هذه الحوادث القــديمة كانت الجرائيم الأولى للمضاعفات التى مزقت كيان فلســطين ودمرت وجودها ! .

* * *

واعود الى الذى كنت اقوله من أن الاستعمــــار هو القــوة الكبرى التى تفرض على المنطقة كلهـا حصارا قاتلا غير مرئى ، اقوى واقسى مائة مرة من الحصار الذى كان يحيط بخنادقنا فى « الفالوجا » وبجيوشنا جميعا وبحكومتنا فى العواصم التى كنا نتلقى منها الأوامر .

ولقد بدات بعد أن استقرت كل هذه الحقائق فى نفسى اومن بكفاح واحد مشترك ، واقول لنفسى :

ــ ما دامت المنطقــة واحدة ، واحوالها واحدة ، ومشاكلها واحدة ، ومستقبلها واحد .. والعدو واحد مهما يحاول ان يضع على وجهه من اقنعة مختلفة ــ فلماذا تتشتت جهودنا ؟ .

ثم زادتنى تجربة ما بعد ثورة ٢٣ يوليو ايمانا بهذا الكفــاح الواحد وضرورته .

فقد بدات خبايا الصورة تتكشف ، والظــلام الذى كان يحيط بتفاصيلها ينقشع .

واعترف انى كذلك بدأت أرى العقبــات الكبرى التى تسد الطريق الى الكفاح الواحد ، ولكنى بدات اومن بأن هذه العقبات نفســها ينبغى أن تزول لأنها من صنــع ذلك العــدو الواحــد نفسه .

ولقد بدات اخيرا فى اتصالات سياسية من اجل توحيد الكفاح مهما تكن وسيلته ، وخرجت بعد شهر من هذه الاتصالات بنتيجة هامة ، هى أن العقبة الأولى فى طريقنا هى « الشك » وكان واضحا أن بذور هذا الشك قد بذرها فى نفوسنا ذلك العدو الواحد نفسه، لكى يحول بيننا وبين الكفاح الواحد !

واذكر انى جلست فى الأيام الاخيرة اتحدث مع اخ من ساسة العرب ، وكان معنا زميل له ، وبدات اتكلم ، وبدا هو يرد على الذى اقوله ..

وكان يقول العبارة ثم يلتفت الى زميله ليرى اثر الذى يقوله فى وجهه بدل أن يحاول استكشاف أثره فى أنا .

وبدات أقول له : تغلب على كل ما فى نفسك من شكوك ، وقل الى كل ما فى قلبك ، وانظر الى وفى عينى ولاتدر وجهك !.

ولست اريد أن اهون من أمر العقبات التى تحول بيننا وبين توحيد الكفاح ، فلا شك أن بعضها معقد تمتد أصوله الى طبيعة البيئة وظروف شعوبها التاريخية والجغرافية ، ولكن المؤكد انه يمكن مع شىء من المرونة القائمة على بعد النظر ، لا على التفريط، ايجاد الخط الذى يستطيع الجميع أن يقفوا فيه ، بلا تحرج ، وبلا عنت ، لمواجهة الكفاح الواحد .

* * *

ولست اشك دقيقة فى ان كفاحنا الواحد يمكن ان يعود علينا وعلى شعوبنا بكل الذى نريده لها ونتمناه .

ولسوف اظل دائما اقول اننا اقوياء ولكن الكارثة الكبرى ، اننا لا ندرك مدى قوتنا !.

اننا نخطىء فى تعريف القوة ، فليست القوة أن تصرخ بصوت عال ، انما القوة أن تتصرف ايجابيا بكل ما تملك من مقوماتها .

وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لا أجد مفرا من أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها يجب أن تكون أول ما يدخل فى الحساب .

أول هذه المصادر أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة المترابطة بكل رباط مادى ومعنوى يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب ، وأن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعثت فى جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاثة ، ولا يمكن قط اغفالها فى محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام .

هذا هو المصدر الأول .

أما المصدر الثانى :

فهو أرضنا نفسها ومكانها على خريطة العالم ذلك الموقع الاستراتيجى الهام الذى يعتبر بحق ملتقى طرق العالم ، ومعبر تجارته ، وممر جيوشه .

يبقى المصدر الثالث : وهو البترول الذى يعتبر عصب الحضارة المادية ، والذى بدونه تستحيل كل أدواتها — المصانع الهائلة الكبيرة لكافة أنواع الانتاج ، وسائل المواصلات فى البر والبحر والجو ، أسلحة الحرب سواء فى ذلك الطائرات المحلقة فوق الضباب أو الغواصة المتسترة تحت أطباق الموج — تستحيل كلها قطعا من الحديد يعلوها الصدأ لا تنبعث منها حركة .. أو حياة .!

وبودى لو وقفت قليلا عند البترول ؟ فلعل وجوده كحقيقة مادية تقررها الاحصائيات والأرقام يصلح ليكون نموذجا للمناقشة فى أهمية مصادر القوة فى بلادنا .

ولقد قرات اخيرا رسالة طبعتها جامعة شيكاغو عن ظروف البترول ، وبودى لو كان لكل فرد من افراد شعوبنا ان يقراها ويتدبر معانيها ويسرح بفكره فى المعنى الكبير الكامن وراء ارقامها واحصائياتها !

تقرر هذه الرسالة مثلا ان العمل لاستخراج بترول البلاد العربية لا يتكلف كثيرا من المال .

« لقد صرفت شركات البترول ٦٠ مليونا من الدولارات فى كولومبيا ابتداء من سنة ١٩١٦ ولم تعثر على قطرة زيت الا فى سنة ١٩٣٦ .

وصرفت هذه الشركات ٤٤ مليونا من الدولارات فى فنزويلا ولم تحصل على قطرة من الزيت الا بعد مرور ١٥ سنة .

وصرفت هذه الشركات ٣٩ مليونا من الدولارات فى جزر الهند الهولندية واخيرا عثرت على الزيت » .

وكانت النتيجة الأخيرة التى قررتها هذه الرسالة فى هذا الموضوع :

« ان راس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى امريكا هو ٧٨ سنتا .

وان راس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى امريكا الجنوبية هو ٤٣ سنتا .

وان راس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى البلاد العربية هو ١٠ سنتات » .

ان عاصمة انتاج البترول فى العالم قد انتقلت من الولايات المتحدة التى استنزفت آبارها وارتفع سعر الأرض فيها وزادت اجور الأيدى العاملة لأبنائها ، الى المنطقة العربية التى ما زالت

آبارها بكرا ، والتى ما زالت أراضيها الشاسعة بلا ثمن ، والتى مازالت يدها العاملة تقبل ما دون الكفاف .

ولقد ثبت أن نصف الاحتياطى المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية ، والنصف الباقى موزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبى وغيرها من بلاد العالم

وثبت أيضا أن متوسط انتاج البئر الواحدة فى اليوم من الزيت هو :

١١ برميلا فى الولايات المتحدة .

٢٣٠ برميلا فى فنزويلا .

٤٠٠٠ برميل فى المنطقة العربية .

هل أوضحت مدى أهمية هذا العنصر من عناصر القوة ؟ أرجو أن أكون قد وفقت .

واذن فنحن أقوياء ، أقوياء ليس فى علو صوتنا حين نولول ، ولا حين نصرخ ، ولا حين نستغيث ، انما أقوياء حين نهدأ أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل ، ومهمنا الحقيقى لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التى تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن كلها ، ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة .

* * *

هذا عن الدائرة الأولى التى لا مفر من أن ندور عليها وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا ، وهى الدائرة العربية .

فاذا اتجهت بعد ذلك الى الدائرة الثانية ، وهى دائرة القارة الافريقية قلت دون استفاضة ودون اسهاب . اننا لن نستطيع

بحال من الأحوال ــ حتى لو اردنا ــ ان نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى اعماق افريقيـا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الافريقيين .

لا نستطيع لسبب هام وبديهى هو اننا فى افريقيا .

ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع الينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله

ولن نستطيع بحال من الأحوال ان نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر الوعى والحضـارة حتى أعماق الغابة العذراء .

ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيـل شريان الحيـاة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة .

ويبقى ايضا أن السودان ــ الشقيق الحبيب ــ تمتد حدوده الى اعماق افريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة فى وسطها .

والمؤكد أن افريقيـا الآن مسرح لفوران عجيب مثير ، وان الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول اوروبية يحاول الآن اعادة تقسيم خريطتها ، ولن نستطيع بحال من الأحوال ان نقف أمام الذى يجرى فى افريقيا ونتصور انه لا يمسنا ولا يعنينا .

ولسوف اظل احلم باليوم الذى أجد فيه فى القاهرة معهدا ضخما لافريقيا يسعى لكشف نواحى القارة امام عيوننا ويخلق فى عقولنا وعيا افريقيا مستنيرا ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها .

* * *

ثم تبقى الدائرة الثالثة .. الدائرة التى تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتى قلت انها دائرة اخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس الى قبلة واحدة ، وتهمس شفاهم الخاشعة بنفس الصلوات ».

ولقد ازداد ايمانى بمدى الفاعلية الأيجابيـة التى يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الاسلامى بين جميع المسلمين ايام ذهبت مع البعثة المصرية الى المملكة العربيـة لتقديم العزاء فى وفاة عاهلها الراحل الكبير ».

ولقـد وقفت امام الكعبة واحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل اليها الاسلام ، ثم وجدتنى اقول لنفسى :

ـ يجب ان تتغير نظرتنا الى الحج ، لا يجب أن يصبح الذهاب الى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة ».

يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم الى متابعة انبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صورا طريفة لقراء الصحف ، وانما بوصفه مؤتمرا سياسيا دوريا يجتمع فيـه كل قادة الدول الاسـلامية ورجال الراى فيها ، وعلماؤها فى كافة أنحاء المعرفة ، وكتابها ، وملوك الصناعة فيها ، وتجارها وشبابها ، ليضعوا فى هذا البرلمان الاسـلامى العـالمى خطوطا عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معا ، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام ».

يجتمعون خاشعين ... ولكن اقوياء ، متجردين من المطامع لكن عاملين ، مستضعفين لله .. ولكن أشـداء على مشـاكلهم وأعدائهم ، حالمين بحياة اخرى ... ولكن مؤمنين أن لهم مكانا تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله فى هذه الحياة ».

واذكر انى قلت بعض خواطرى هذه لجلالة الملك سعود ؛ فقال لى الملك :

ــ اذن هذه هى فعلا ، الحكمة الحقيقية من الحج »

وفى الحق انى لا استطيع ان اتصور للحج حكمة اخرى »

وحين اسرح بخيالى الى ثمانين مليونا من المسلمين فى اندونيسيا وخمسين مليونا فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان ، واكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفيتى ، وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض المتباعدة ــ حين أسرح بخيالى الى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج باحساس كبير بالامكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصيلة بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة .

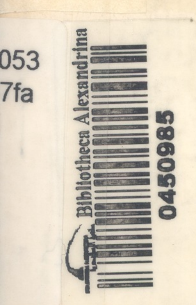
ثم اعود الى الدور التائه الذى يبحث عن بطل يقوم به ...

ذلك هو الدور ، وتلك هى ملامحه ، وهذا هو مسرحه ...

ونحن وحدنا بحكم « المكان » نستطيع القيام به .

مصلحة الاستعلامات

دار ومطابع الشعب



وزارة الارشاد القومى
مصلحة الاستعلامات